الفصل السادس

المرابطون

- يوسف بن تاشفين.
- علي بن تاشفين.
- تاشفين بن يوسف.

obeikandl.com

obeikandl.com

المرابطون الذين استنجد بهم بعض حكام دويلات الأندلس هم من قبيلة لمتونة، وهي إحدى بطون صنهاجة، وهم قبائل صحراوية يعتمدون في قوتهم على لحم الإبل ولبنها، ويعرفون بالملثمين وقيل أنهم كانوا يقلدون في ذلك قبيلة حمير العربية التي ينتسبون إليها.

كانوا يدينون بالمجوسية ثم أسلموا وحسن إسلامهم، ولما أفضت الرئاسة إلى يحيى بن إبراهيم الكندالي خرج لقضاء بعض مهماته، فلقوا في منصرفهم شيخ المذهب المالكي أبا عمران الفارسي، فطلب منه يحيى إرسال أحد تلاميذه لتفقيههم في الدين فأرسل معهم عبدالله بن ياسين، وكان يحيى مطيعاً لعبدالله بن ياسين الورع التقي شديد الغيرة على دينه، لكنه كان شديداً سمى أتباعه بالمرابطين، وبعد وفاة يحيى بن إبراهيم تولى الإمارة يحيى بن عمر اللمتوني وتولى القيادة الحربية عبدالله بن ياسين وامتد غرباً حتى وصل مراكش وغيرها من المدن ونازل في حربه قبائل برغواطة، وكان بعض أفراد هذه القبيلة تسير على مذهب ضلال ابتدعه رجل يهودي الأصل يقال له: صالح بن طريف البرناطي، حيث جعل الصلوات خمساً في الليل وخمساً في النهار، والصوم في رجب، وأباح الزواج بأي عدد من النساء دون قيد، فسار عبدالله بن ياسين إلى قتالهم، فقاتلهم قتالاً شديداً فأصيب بجروح بالغة مات على أثرها، ويقال أنه رحمه الله مع عفته وورعه شغوفٌ بالنساء يتزوج في كل شهر عددا منهنَّ ويطلقهن، وبعد وفاته تولى أبوبكر اللمتوني قيادة الدولة وحركة الموحدين، ويعتبر مؤسس دولة المرابطين، واختار ابن عمه يوسف بن تاشفين لمؤازرته فولاه أمر المغرب بينما تولى أمور الصحراء.

obeikandl.com

يوسف بن تاشفين

تحمل لنا الروايات أنَّ يوسف بن تاشفين تقي ورع متدين، متواضع تواضعاً جماً، متقشف يرتدي الصوف طول حياته، ولا يأكل سوى لحم الإبل والشعير، جواد، كريم، عفيف، عادل، رقيق، حليم. ومع هذا فهو قوي الشكيمة، مقدام منصور في غزواته، رفيق برعيته.

كان سقوط طليطلة عاملاً حاسماً في استنجاد حكام الأندلس الماجنين الباذخين بهذا الشيخ التقي الورع المتقشف، كما أنَّ ما حدث بين المعتمد بن عباد ورسل حاكم قشتاله عجل بعبوره البحر لدخول الأندلس.

لمَّا اقترب يوسف بن تاشفين من إشبيلية، استقبله المعتمد بن عباد بحفاوة بالغة وقدم بعض حكام الطوائف المؤن والمساعدة كلٌّ على قدر استطاعته، ووضع المعتمد بن عباد على مقدمة جيش الأندلس، فوصل النبأ ألفونسو وكان محاصراً سرقسطة، فعاد على عجل وطلب العون من ممالك النصارى الأخرى، فسار بجيش كبير جداً يفوق جيش المسلمين عدد وعدة، وبعد أن تقابل الجيشان كتب يوسف بن تاشفين إلى ألفونسو: «بلغنا يا أدفونس أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال».

وقامت معركة الزلاقة التي كانت شديدة القسوة وقد ذكر لنا صاحب روض القرطاس: أن عدد القشتاليين ثمانون ألف فارس ومئتا ألف راجل قتلوا أجمعين ولم يبق منهم سوى مِئَة فارس وأنَّ المسلمين خسروا نحو ثلاثة آلاف.

وأعتقد أنَّ الرقم الخاص بالقشتاليين مبالغ فيه، لكن الروايات تؤكد أنَّ المسلمين صنعوا تلاً من رؤوس القتلى وقاموا بالأذان عليه.

بعد انتهاء المعركة عاد كل إلى دولته وقد عاد يوسف بن تاشفين إلى العدوه المغربيه بسرعة غير متوقعة بسبب وفاة أحد أبنائه، كما تنقل بعض الروايات أنَّه عاد لكثرة ما وجده من حكام الطوائف من منازعات وخلافات مع شعوبهم.

مرة أخرى يعود القشتاليون إلى تخريب الأراضي الأندلسية الإسلامية، ويتذمر المسلمون فيقطع المعتمد بن عباد بنفسه البحر إلى يوسف بن تاشفين طالباً قدومه إلى الأندلس.

فوافق يوسف وعبر البحر وحاصر حصن «أليدو» فبقي هناك أربعة أشهر محاصراً له، وقد صمد المدافعون عن الحصن رغم الجوع الشديد، وضاق يوسف بن تاشفين ذرعاً بخصومات حكام الأندلس الذين انضموا إليه حيث اشتكى المعتمد خصمه ابن رشيق باستيلائه على مرسيه واتهمه بأنه يتفاهم مع ملك قشتالة سراً وأنه يساعد حامية الحصن في الخفاء وأنه يدفع الجزية، فأمر يوسف بن تاشفين تسليم ابن رشيق إلى المعتمد بن عباد بعد أن استفتى الفقهاء في أمره وطلب من المعتمد عدم الإبقاء على حياته.

وغضب جند ابن رشيق وانسحبوا من المعسكر وقطعوا المؤن عن الجيش المسلم، فعلم يوسف بن تاشفين أنَّ القشتاليين قادمون في جيش ضخم، فآثر العودة دون تحقيق شيء يذكر، ومن ثم عاد كل إلى بلده.

وتعتبر هذه مأساة لعدم بلوغ المسلمين مرادهم بسبب وشايات وأحقاد بين متنافسين على مدن هنا وهناك، كما تبين ليوسف بن تاشفين بالدليل القاطع أنَّ حكَّام الأندلس مستمرين في غيهم وأنَّ ترك الوضع كما هو عليه سيؤدي إلى استئصال الإسلام من الأندلس.

وبعد عام من رجوعه إلى مراكش قرر عبور البحر إلى الأندلس ففعل للمرة الثالثة واتجه مباشرة إلى طليطلة ولم ينضم إليه أحد من حكام الطوائف في غزوته هذه، وعندما أيقن أنَّ حصارها سيدوم ترك عليها الحصار وسار إلى غرناطة وحاكمها عبدالله بن بلقين، فلما علم بقدوم يوسف بن تاشفين، خاطب القشتاليين وأرسل لهم الهدايا والتحف والأموال في الخفاء، وتعهد ألفونسو لعبدالله بأن لا يخفر له عهداً، ولا يساعد له عدواً، وأن يسير بنفسه لمساعدته، فاطمأن عبدالله بن بلقين وقويت همته.

ونقل صاحب كتاب دولة الإسلام في الأندلس من أحد المخطوطات شعراً يقول صاحبه:

صانع أدفونش والنصارى ... فانظر إلى رأيه الوبير
وشاد بنيانه خلافاً ... لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاهاً ... كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدري ... إذا أتت قدرة القدير

ومنع يوسف بن تاشفين عن غرناطة المدد المحتمل، كما أنَّ ضغوطاً داخلية من قبل الفقهاء جعلت عبدالله بن بلقين يقدم إلى جيش يوسف بن تاشفين المؤن والمساعدة.

وطلب منه يوسف بن تاشفين الاستسلام فتمنَّع، ثم ألح عليه أهله وحرمه، فمنحه يوسف الأمان على أهله وماله وحرمه على أن يغادر غرناطه، ففعل.

وعندما علم المعتمد بما حلَّ بحاكم غرناطة خشي العاقبة فقدم مهنئاً ليوسف بن تاشفين ومعه المتوكل بن الأفطس، لكن يوسف بن تاشفين استقبلهم بجفاء، فعاد المعتمد بن عباد إلى إشبيليه وهو عازم على مقارعة ابن تاشفين إن هو همَّ بدخول إشبيلية.

وقد طلب يوسف بن تاشفين من المعتمد بن عباد أن يقدم إليه فرفض، وطلب منه رفع المكوس الجائرة عن الناس فرفض، وطلب منه مدافعة النصارى وعدم الخنوع فرفض، فسار الجيش المرابطي إلى قرطبة وكان واليها المأمون ابن المعتمد ودافع عنها حتى قتل في شهر صفر عام ٤٨٤ هـ.

وكان جيش من جيوش يوسف بن تاشفين قد توجه إلى «رندة» ووواليها من قبل المعتمد ابنه الراضي فقتل مثلما قتل أخوه، وسار جيش ثالث إلى اشبيلية وفيها المعتمد ابن عباد فحاصرها، وبعد ذلك استسلمت المدينة بعد تردد فنهبت وكان القتل والاستباحة كبيرة لتنتهي بذلك حقبة من أهم حقب الشعر والأدب ومن أسوئها في الصلاح والإدارة.

ويقول ابن اللبانة: «والمعتمد مع ذلك منغمس في لذاته وقد ألق الأمور بيد ابنه الرشيد، فلم يشعر ابن عباد إلا والعسكر معه في البلد، فأفاق من نومه، وصحى من سكره، وركب فرسه وحسامه في يده، وليس عليه إلا ثوب واحد، فوافق العسكر قد دخل من باب الفرج، ووافى هنالك طبالا فضربه بسيفه ضربة قسمته نصفين، ففر الناس أمامه، وتراموا من السور»، إلى أن قال: «فلما وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكاً مقتولاً، فاسترحم له، ودخل القصر وزاد الأمر بعد ذلك ودخل البلد من كل جهاته فطلب الأمان له ولمن معه، فأمِّن وجميع من له وأعدت له مراكب، واجتاز إلى طنجة ولقي الحصري الشاعر، وكان قد ألَّف له كتاب المستحسن من الأشعار فلم يقض بوصوله إليه إلا وهو على تلك الحال، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري: ارفع ذلك البساط فخذ ما تحته، فوالله ما أملك

غـيره، فوجد تحته حملة مال فأخذه». وكان لقاؤه مع الحصـري في طنجة وهو في طريقه إلى سجن أغمات بالقرب من مراكش.

نهايـة مؤسـفة للمعتمـد ولأبنائـه الثلاثـة الذيـن قتلـوا -رحمهم الله وجميـع موتى المسـلمين-. كما يتضـح لنا لؤم الحصـري الشـاعر في أخذه المال من ملك مكبل بالقيود فقد ثلاثة من ولده، وضـاع منه ملك الأندلس، كان أحوج ما يكون إلى تلك الأموال لياليه القادمة الحالكة السـواد، لكنه فعل الحصري فعل معظم المنافقين الذين يجيدون القول، ولا يحسنون العمل.

وكان بصـحبته بنوه وبناته وزوجته المشـهورة الرميكية وقيل عنها: «وهي التي ورطت المعتمد في ورطته من الخلاعة والاسـتهتار والمجاهرة حتى كتب أهل إشـبيلية عليه بذلك فقد زينت له بتعطيل صلوات الجُمَعْ عقوداً ودفعوها إلى أمير المسلمين، فكان من أمره ما كان، وسجن المعتمد في أغمات وسجنت الرميكية معه فماتت هناك قبله».

ومن شعر المعتمد في وصف وقوفه في وجه أعدائه:

إن يسـلـب الـقـوم الـعـدا ... ملكـي وتُسـلِمـنِي الجمـوعُ
فـالـقـلـب بـيـن ضـلـوعـه ... لم تُسْـلِـم القلـب الضـلـوعُ
قـد رمـت يـوم نـزالـهـم ... ألا تـحـصـنـنـي الـدروعُ
وبـرزت ليـس سـوى القميص ... مـن الحـشـا شـيء دفـوعُ
أجـلـي تـأخـر لـم يكـن ... بـهـواي ذُلِّـي والخـضـوعُ

واسـتمر يوسف بن تاشـفين في فتح المدن الأخرى، ثم سار إلى مراكش تاركاً أحد قواده على رأس جيشـه في الأندلس، وسـار جيش من المرابطين والأندلسـيين إلى طليطلة فكانت معركة مع القشتاليين انتصر فيها المسلمون ولكنَّهم لم يستطيعوا اقتحام حصون طليطلة.

قال في أحد مجالسه مبرراً دخوله الأندلس: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكها وإهمالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما هَمُّ أحدهم، كأس يشربها، وقينة تُسْمِعُه، ولهو يقطع به أيامه، ولإن عشت لأعيدنَّ البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين

Obeikandl.com

ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما همُّ أحدهم فرس يروضه ويستنفره، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته».

ومات يوسف بن تاشفين بمراكش في عام ٥٠٠ هـ وكان عمره مئة عام بعد أن قضى على حكام الطوائف الذين امتدت فترة حكمهم نصف قرن، وكان حكمه نصف قرن قضاها مجاهداً، ورعاً، سديد الرأي، ظاهر السعد، راجح العقل.

وقبل إسدال ستار الحديث عن يوسف ابن تاشفين فمن المستحسن الوقوف على بعض مآسي المعتمد ابن عباد لشهرة مأساته.

عندما وصل المعتمد إلى أغمات ورأت زوجته الرميكية السجن وأهواله، ارتاعت لهول ما رأت، وقالت: «يا سيدي، لقد هُنَّا هُنَا».

فقال المعتمد بيتين ليسجل لنا ذلك الموقف:

قالت: لقد هُنَّا هنا ... مولاي، أين جاهُنا
قلت لها: إلى هُنَا ... سيَّرنَا إلهُنَا

وبقي في السجن زمناً، قال الفتح: «وأول عيد أخذه -المعتمد- بأغمات وهو سارح، وما غير الشجون له مبارح، ولا زِيَّ إلى حالة الخمول، واستحالة المؤمول، فدخل عليه من بنيه من يسلم عليه ويهنيه، وفيهم بناته وعليهن أطمار، كأنها كسوف وهنَّ أقمار، يبكين عند التساؤل، ويبدين الخشوع بعد التحايل والضياع قد غير صورهنَّ، وحيرَّ نظرهنَّ، وأقدامهن حافية، وآثار نعيمهنَّ عافية، فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خد إلا تشكى الجدب ظاهره ... وليس إلّا مع الأنفاس ممطورا
أفطرت في العيد لا عادت مساءته ... فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً ... فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال بعد أن آلمته القيود:

تبدلت من عز ظل البنود ... بذل الحديد وثقل القيودِ
وكان حديداً سناناً ذليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيل الحديدِ
فقد صار ذاك وذا أدهماً ... يعض بساقي عض الأسود

وقال الفتح أيضاً: ولما نقل المعتمد من بلاده، وأعري من طارفه وتلاده، وحمل في السفين، وأحل في العدوة محل الدفين، تندبه منابره وأعواده،ولا يدنو منه زواره ولا عواده، بقي أسفاً تتصعد زفراته، وتطرد اطراد المذانب عبراته، لا يخلو بمؤانس، ولا يرى إلا عريناً بدلاً من تلك المكانس، ولما لم يجد سلواً، ولم يؤمل دنواً، ولم ير وجه مسرة مجلواً، تذكر منازله فشاقته، وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قطانه، وإظلام جوه من أقماره، وخلوه من حراسه وسماره، فقال:

بكى المبارك في إثر ابن عباد ... بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها ... بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيد، بكى الزاهي وقبته ... والنهر والتاج، كل ذله بادي
ماء السماء على أفيائه درر ... يا لجة البحر دومي ذات إزباد

وفي ذلك يقول ابن اللبانة:

أستودع الله أرضاً عندما وضحت ... بشائر الصبح فيها بدلت حلكا
كان المؤيد بستاناً بساحتها ... يجني النعيم وفي عليائها فلكا
في أمره لملوك الدهر معتبر ... فليس يغتر ذو ملك بما ملكا
نبكيه من جبل خرت قواعده ... فكل من كان في بطحائه هلكا

وكان القصر «الزاهي» من أجمل المواضع لديه وأبهاها، وأحبها إليه وأشهاها، لإطلاله على النهر،وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالزهر والزيتون، وكان له به من الطرب، والعيش المزري بحلاوة الضرب، ما لم يكن بحلب لبني حمدان، ولا لسيف بن ذي يزن في رأس غمدان، وكان كثيراً ما يدير به راحه، ويجعل فيه انشراحه، فلما امتد الزمان إليه بعدوانه، وسد عليه أبواب سلوانه، لم يحن إلا إليه، ولم يتمن غير الحلول لديه، فقال:

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسريرُ
وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزيرُ
مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح منه اليوم وهو نفورُ
برأي من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للصالحين دهورُ
أذل بني ماء السماء زمانهم ... وذل بني ماء السماء كبيرُ
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ
بمنبتة الزيتون مورثة العلا ... تغني حمامٌ أو ترن طيورُ
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا ... تشير الثريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعدُ سعوده ... غيورين والصبُّ المحبُّ غيورُ
تراه عسيراً لا يسيراً مناله ... ألا كل ما شاء الإله يسيرُ

وثار ابنه عبدالجبار في الأندلس واجتمع حوله بعض من أهلها فعلم بذلك يوسف بن تاشفين فأمر بإثقال القيود عليه فقال:

قيدي أما تعلمني مسلماً ... أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب وقد هشما

وقال أيضا:

غمتك أغماتية الألحان ... ثقلت على الأرواح والأبدانِ
قد كان كالثعبانِ رمحك في الورى ... فغدا عليك القيدُ كالثعبانِ
متمرداً يحميك كل تمرد ... متعطفاً لا رحمة للعانيِ
قلبي إلى الرحمن يشكو بَثّه ... ماخاب من يشكو إلى الرحمنِ
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ... ما كان أغنى شأنه عن شانِ
هاتيك قينته وذلك قصره ... من بعد أي مقاصر وقيانِ

ولما فقد من يجالسه، وبعد عنه من كان يؤانسه، وتمادى كربه، ولم تسالمه حربه، قال:

تؤمل للنفس الشجية فرجةً ... وتأبى الخطوب السودُ إلا تماديا
لياليك في زاهيك أصفى صحبتها ... كذا صحبت قبلي الملوك الليالیا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ ... وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا

ولما امتدت في الثقاف مدته، واشتدت عليه قسوة الكبل وشدته، وأقلقته همومه، وأطبقته غمومه، وتوالت عليه الشجون، وطالت لياليه الجون، قال:

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا ... بل قد عممن جهات الأرض إقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم ... حتى أتت شرقها تنعاك إشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة ... وأغرق الدمعُ آماقاً وأحداقا
قد ضاق صدر المعالي إذ نعيت لها ... وقيل: إن عليك القيد قد ضاقا
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب ... للغالبين وللسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها ... وكان غربي إلى الأعداء طراقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة ... إذا انبرت لذوي الأخطار أرماقا

وقال ابن خاقان: لما ثار ابنه حيث ثار، وأثار من حقد أمير المؤمنين عليه ما أثار، جزع جزعاً مفرطاً، وعلم أنه قد صار في أنشوطة الشر متورطاً، وجعل يتشكى من فعله ويتظلم، ويتوجع منه ويتألم، ويقول: عرض بي للمحن، ورضي لي أن أمتحن، ووالله ما أبكي إلا انكشاف من أتخلفه بعدي، ويتحيَّفه بعدي، ثم أطرق ورفع رأسه وقد تهللت سريرته، وظللته مسرته، ورأيته قد استجمع، وتشوف إلى السماء وتطلع، فعلمت أنه قد رجا عودة إلى لطانه وأوبة إلى أوطانه، فما كان إلا بمقدار ما تنداح دائرة، أو تلتفت مقلة حائرة، حتى قال:

كذا يهلك السيف في جفنه ... على هز كفي طويل الحنينِ
كذا يعطش الرمح لم أعتقله ... ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرف علك الشكيـ ... ـم مرتقباً غرة في كمينِ
كأن الفوارس فيه ليوث ... تراعي فرائسها في عرينِ
ألا شرف يرحم المشرفي ... مما به من شمات الوتينِ
ألا كرم ينعش السمهري ... ويشفيه من كل داء دفينِ
ألا حنة لابن محنية ... شديد الحنين ضعيف الأنينِ
يؤمل من صدرها ضمة ... تبوئه صدر كفؤ معينِ

وكانت طائفة من أهل فاس قد عاثوا فيها وفسقوا، وانتظموا في سلك الطغيان واتسقوا، ومنعوا جفون أهلا السنات، وأخذوا البنين من حجور آبائهم والبنات، وتلقبوا بالإمارة،

وأركبوا السوء نفوسهم الأمارة، حتى كادت أن تقفز على أيديهم، وتدثر رسومها بإفراط تعديهم، إلى أن تدارك أمير المسلمين رحمه الله تعالى أمرهم، وأطفأ جمرهم، وأوجعهم ضرباً، وأقطعهم ما شاء حزناً وكرباً، وسجنهم بأغمات، وضمتهم جوانح الملمات، والمعتمد إذ ذاك معتقل هناك، وكانت فيهم طائفة شعرية، مذنبة أو بيرة، فرغبوا إلى سجانهم، أن يستريحوا مع المعتمد من أشجانهم، فخلى ما بينهم وبينه، وغمض لهم في ذلك عينه، فكان المعتمد -رحمه الله تعالى- يتسلى بمجالستهم، ويجد أثر مؤانستهم، ويستريح إليهم بجواه، ويبوح لهم بسره ونجواه، إلى أن شفع فيهم وانطلقوا من وثاقهم، وانفرج لهم مبهم أغلاقهم، وبقي المعتمد في محبسه يشتكي من ضيق الكبل، ويبكي بدمع كالوبل، فدخلوا عليه مودعين، ومن بثه متوجعين، فقال:

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة ... لقد آن أن يفنى، ويفنى به الخدُّ
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلىً ... بما منه قد عافاكم الصمد الفردُ
تخلصتم من سجن أغمات والتوت ... علي قيود لم يحن فكها بعدُ
من الدهم أما خلقها فأساود ... تلوى وأما الأيد والبطش فالأسدُ
فهنيتم النعما، ودامت لكلكم ... سعادته إن كان قد خانني سعدُ
خرجتم جماعات وخلفت واحدا ... ولله في أمري وأمركم الحمدُ

ومرَّ عليه في موضع اعتقاله سرب قطاً لم يعلق لها جناح، ولا تعلق بها من الأيام جناح، ولا عاقها عن أفراخها الأشراك، ولا أعوزها البشام ولا الأراك، وهي تمرح في الجو، وتسرح في مواقع النو، فتنكد بما هو فيه من الوثاق، وما دون أحبته من الرقباء والأغلاق، وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من وجده وخبله، وفكر في بناته وافتقارهن إلى نعيم عهدنه، وحبور حضرنه وشهدنه، فقال:

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي ... سوارح لا سجن ولا كبلُ
ولم تك، والله المعيذ، حسادة ... ولكن حنيناً أن شكلي لها شكلُ
فأسرح لا شملي صديع، ولا الحشا ... وجيع، ولا عيناي يبكيهما ثكلُ
هنيئاً لها أن لم يفرق جميعها ... ولا ذاق منها البعد عن أهلها أهلُ
وإذ لم تبت مثلي تطير قلوبها ... إذا اهتز باب السجن أو صلصل القفلُ
وما ذاك مما يعتريه، وإنما ... وصفت التي في جبلة الخلق من قبلُ
لنفسي إلى لقيا الحمام تشوف ... سواي يحب العيش في ساقه كبلُ
ألا عصم الله القطا في فراخها ... فإن فراخي خانها الماء والظلُ

وهو في هذه الحالة زاره الأديب أبو بكر بن اللبانة، وهو أحد شعراء دولته المرتضعين دررها، المنتجعين دررها، وكان المعتمد -رحمه الله تعالى- يميزه بالشفوف والإحسان، ويجوزه في فرسان هذا الشان، فلما رآه وحلقات الكبل قد عضت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساود السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم، بعدما عهده فوق منبر وسرير، ووسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية، وتكف الأمطار من راحته، وتشرف الأقدار بحلول ساحته، ويرتاع الدهر من أوامره ونواهيه، ويقصر النسر أن يقارنه أو يضاهيه، ندبه بكل مقال يلهب الأكباد، ويثير فيها لوعة الحرث بن عباد، أبدع من أناشيد معبد، وأصدع للكبد من مراثي أربد، أو بكاء ذي الرمة بالمربد، سلك فيها للاحتفاء طريقاً لاحباً، وغدا فيها لذيول الوفاء ساحباً، فمن ذلك قوله:

انفض يديك من الدنيا وساكنها ... فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلي قد كتمت ... سريرة العالم العلوي أغماتُ
طوت مظلتها لا بل مذلتها ... من لم تزل فوقه للعز راياتُ
من كان بين الندى والبأس أنصله ... هندية وعطاياه هنيداتُ
رماه من حيث لم تستره سابغة ... دهر مصيباته نَبْلُ مُصيباتُ
أنكرت إلا التواءات القيود به ... وكيف تنكر في الروضات حياتُ
غلطت بين همامين عقدن له ... وبينها فإذا الأنواع أشتاتُ
وقلت هنَّ ذؤابات فلم عكسن ... من رأسه نحو رجليه الذؤاباتُ
حسبتها من قناه أو أعنته ... إذا بها لثقاف المجد آلاتُ
دروه ليثاً فخافوا منه عادية ... عذرتهم فلعدو الليث عاداتُ
لو كان يفرج عنه بعض آونة ... قامت بدعوته حتى الجماداتُ
بحر محيط عهدناه تجيء له ... كنقطة الدارة السبع المحيطاتُ
لهفي على آل عباد فإنهم ... أهلة ما لها في الأفق هالاتُ
راح الحيا وغدا منهم بمنزلة ... كانت لنا بِكرٌ فيها وروحاتُ
أرض كأن على أقطارها سرجاً ... قد أوقدتهن بالأدهان أنباتُ
وفوق شاطئ واديها رياض ربىً ... قد ظللتها من الأنشام دوحاتُ
نهر شربت بعبريه على صور ... كانت لها في قبل الراح سوراتُ
وربما كنت أسمو للخليج به ... وفي الخليج لأهل الراح راحاتُ
وبالعروسات لا جفت منابتها ... من النعيم غروسات جنياتُ

ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات، ونفسه تتقسم بين الأشجان والحسرات، إلى أن شفته منيته، وجاءته بها أمنيته، فدفن بأغمات، وأريح من تلك الأزمات:

وعطلت المآثر من حلاها وأفردت المفاخر من علاها

ورفعت مكارم الأخلاق، وكسدت نفائس الأعلاق، وصار أمره عبرة في عصره، وصاب أندى عبرة في مصره. وبعد أيام وافى أبو بحر بن عبدالصمد شاعره المتصل به، المتوصل إلى المنى بسببه، فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحىً، وظهر كل متوار واضحاً، قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم، واختيالهم بزينتهم وحلاهم، وقال -بعد أن طاف بقبره والتزمه، وخر على تربه ولثمه-:

ملك الملوك، أسامعُ فأنادي أم قد عدتك عن السماعِ عوادي
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعيادِ
قبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الإنشادِ

وهي قصيدة أطال إنشادها، وبنى بها اللواعج وشادها، فانحشر الناس إليه وانحفلوا، وبكوا ببكائه وأعولوا، ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم، وأقرحوا مآقيهم بفيض شؤونهم، وهذه نهاية كل عيش، وغاية كل ملك وجيش، والأيام لا تدع حياً، ولا تألو كل نشر طياً، تطرق رزاياها كل سمع، وتفرق مناياها كل جمع، وتصمي كل ذي أمر ونهي، وترمي كل مشيد بوَهْي، ومن قبله طوت النعمان بن الشقيقة، ولوت مجازه في تلك الحقيقة.

obeikandl.com

علي بن تاشفين

تولى الحكم بعد يوسف بن تاشفين ابنه علي بن يوسف وكان عمره عند توليه الحكم ثلاثة وعشرين عاماً، وقد اختاره والده رغم وجود من هو أسنَّ منه من إخوانه لما وجده فيه من رجاحة العقل، والورع، والشجاعة، ولاجتهاده في السير على نهج أبيه.

وكان أهم اختبار لهذا الحاكم الشاب الجديد معركة حصن أفليش التي وقعت بين المسلمين والقشتاليين، وقد كان على رأس الجيش القشتالي الإنفانت سانشو بن الفونسو السادس وولي العهد البالغ من العمر أحد عشر عاماً، وأمه اسمها «زائده» التي ذكرت بعض الرويات أنها إحدى زوجات أو محظيات الفتح بن المعتمد المسلمة التي تنصرت، وعلى رأس جيش المسلمين تميم بن تاشفين الأخ الأكبر لعلي، وقد كانت معركة قوية وحاسمه انتهت بانتصار المسلمين ووفاة الصبي سانشو، وقد استطاع المسلمون استرداد الجزائر الشرقية بعد أن عبر البحر من مركزه مراكش إلى الأندلس، وكان قد عبرها قبل ذلك لردع أعدائه النصارى.

ومآسي الأندلس تتدفق تدفق السيل من قمم الجبال، وكلما اطمأن الناس ورجوا دوام الحال، خرج للفتنة موقد، وللخراب مؤثر، وللسكينة مجافٍ، وللحق منافٍ، يقول ابن الأثير: «إنَّ الناس خرجوا يوم العيد متفرجين، فمد عبد من عبيد أبي بكر والي قرطبة يده إلى امرأة وأمسكها، فاستغاثت فأغاثها الناس، فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل، ووصل الخبر إلى الوالي الأمير أبي بكر، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان واقترحوا عليه تهدئة للحال أن يقتل واحداً من العبيد الذين أثاروا الفتنة، فأنكر ذلك وغضب، وفي اليوم التالي استعد للقتال وأظهر السلاح والعدد، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء وهزموه، فتحصن في القصر فحاصروه، وفر منهم بعد مشقة، فنهبوا القصر وأحرقوا دور المرابطين ونهبوا أموالهم وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة».

المأساة تتعدى خروجهم إلى ما هم أعظم من ذلك وهو بداية الخروج على المرابطين في ظل الحكم الجديد، ولا يمكن أن ننسى ما قد يحدث من سوء تدبير من قبل الولاة حتى مع صلاح الحاكم، وسوء التدبير هذا يدفع بالعامة إلى السخط على الحاكم في أمر لم يقترفه فيسوء الحال.

ودخل علي بن يوسف الأندلس للمرة الرابعة في جيش كبير، وتفاوض مع قاضي قرطبة ابن رشد وأعيانها، وانتهى التفاوض إلى اتفاق يدفع بمقتضاه أهل قرطبة تعويضاً عما تم نهبه وتخريبه.

وبقي علي بن يوسف في قرطبة مدة يسيرة، فوردت إليه أنباء من مراكش عن استفحال أمر محمد بن تومرت المهدي في السوس الأقصى من بلاد المغرب.

ومأساة أخرى ونذير شر وهي حصار سرقسطة لمدة سبعة أشهر وأهلها يتضورون جوعاً، وكان الجيش المرابط مؤثراً العافية، ممتنعاً عن المواجهة، تاركاً المدينة بمن فيها لمستقبل مجهول، هذا المستقبل جعلها تخرج من أيدي المسلمين إلى عصرنا هذا بعد أن بقيت في ايديهم نحو أربعة قرون.

ولقد ناشد قاضي سرقسطة ثابت بن عبدالله الأمير تميم بن يوسف للقدوم ومقارعة العدو وذلك قبل سقوطها فقال: «وما كان إلا أن وصلت، وصل الله برك بتقواه، على مقربة من هذه الحضرة، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة، بتلك العساكر التي أقرَّ العيون بهاؤها، وسرَّ النفوس زهاؤها، فسرعان ما انثنيت وانتهيت، وارعويت وما أدنيت، خابياً عن اللقاء، ناكصاً على عقبيك عن الأعداء، فما أوليتنا غناء، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء، بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء، بل أذللت الإسلام والمسلمين، واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام، لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكصت عن لقاء عدوه، وهو في فئة قليلة ولمة رذيلة، وطايفة قليلة».

وتوالى سقوط المدن القريبة منها، فقد نشبت معركة بين المسلمين والنصارى في تطيله هزم فيها المسلمون فسقطت، واستمر تهاوي العقد في وسط الأندلس.

وعلينا ألا ننسى أنه تزامن مع هذه الأحداث المؤلمة في الأندلس أحداث جسام في المغرب، وذلك باستفحال حركة محمد بن تومرت المهدي مما يعوق إرسال جيش كبير إلى الأندلس لمقارعة الخصوم، وهذه مأساة أخرى صنعها المسلمون بأيديهم وحصدوا ثمارها تشريداً ومذلَّة.

وعاد ألفونسو الأرجواني إلى محاربة المسلمين، وكانت موقعة القلاعة التي انهزم فيها المسلمون، وقتل منهم نحو اثني عشر ألفاً وتم سلب ما لديهم، ونكبوا نكبة نكراء فأرسل الأمير علي بن يوسف إلى قائد جيشه خطاباً معاتباً إياه فيه فقال: «وإنَّ لبيان العذر بتلك الحال لقصير، وإنَّ الله على ذلك المشهد المضيع لمطَّلِعٌ بصير، توافقتم مع عدوكم، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر جمعاً، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعاً، وأقوى دونه دفعاً، فتب وزللتم، وجدَّ ونكلتم، وشدَّ عقدة عزيمته وحللتم، وكنتم في تلك الوقعة قرَّة عين الحاسد، وشماتة العدو والراصد، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة، ودعامتكم لولا إنثناؤه عنكم مائلة، فشغله عنكم من غررتموه من الرجل الذي أسلمتوه للقتل، وفررتم ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه، لا نكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم، عاقبكم الله بما أنتم أهله».

بعد هذه المعركة حدثت معركة أخرى عام ٥٢٨ هـ، كان المسلمون بحاجة ماسة لها وهي معركة إفراغة، وفيها سار الفونسو الأرجواني لمقارعة المسلمين، فكان القتال عند إحدى المدن الحصينة واسمها إفراغة، حيث أقسم الفونسو مع عشرين من الفرسان ألا يعودوا بغير النصر أو الموت.

وكان يحيى بن عاينه قائد المسلمين قائداً عليماً بأمور الحرب ودروبه، فكان قتالاً شديداً قتل على إثره الفونسو وانتصر جيش المسلمين وكان نصراً مؤزراً أعاد للمسلمين هيبتهم.

وخطأ ارتكبه المسلمون يمكن إدراجه تحت المأساة، وهو ضياع فرصة التقدم إلى الشمال واسترداد سرقسطة في وقت كان الجيش الأرجواني منهزماً هزيمة ساحقة مات خلالها الفونسو الأرجواني المحارب الذي لاشك أن مقتله قد جعل الجيش الأرجواني يفقد به محارباً جباراً وقائداً عظيماً.

وبهذه الواقعة كان هناك القشتاليون وقاعدتهم طليطلة، والأرجوانيون وقاعدتهم سرقسطة والمسلمون وقاعدتهم غرناطة في انتظار الأحداث المتتالية.

ينقل لنا المراكشي في كتابه المعجب عن اختلال أحوال المرابطين فيقول: «واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة وذلك لإستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد، وانتهوا في ذلك إلى التصريح، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من عليٍّ أمير المسلمين وأحق بالأمر منه! واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهم الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسفة مشتملة على كل مُفْسِدٍ وشرِّير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل، فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال، فاختلَّ لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول، لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس».

وشواهد تأثره بالنساء كثيرة، ومنها أن سريته «قمر» أم ولده «سير» أقنعت زوجها علي بن تاشفين على تولية ابنها ولاية العهد مع أنه يركن للراحة والبطالة، ويصطحب أهل الفكاهة والمجون كما يقول ابن عذارى، وقد قُتل «سير» هذا في حياة أبيه واختلف الرواة في سبب مقتله، ولعل الرواية التي ينقلها لنا ابن القطان أقرب إلى الصواب مع قبحها، فقد تسور سير سور قصر أخيه عمر، يريد زوجة أخيه والعياذ بالله، فجرح جراحاً مات على أثرها، فجزع عليه أبوه، وحاولت سريته قمر أن تولي ابنها الصغير إسحاق مكان أخيه ولياً للعهد مع أنه لم يبلغ الحلم، فتردد في ذلك فأكثرت الإلحاح، فاستشار الفقهاء والأعيان فهتفوا جميعاً باسم تاشفين فولاه العهد متلطفاً لمحظيته قمر بعدم تولية ابنها.

وعلينا أن ندرك أن المأساة تكمن في تغليب الهوى، فلما سَلِمَ المسلمون من حكام الطوائف الذين اشتغلوا باللهو والمجون والنساء، وتولى الحكم المرابطون الأتقياء، لم يسلم المسلمون أيضاً من شهوات الزوجات من حرائر ومحظيات.

تاشفين بن يوسف

أثنـاء حكم أمير المؤمنين علي ابن تاشـفين كان ابنه تاشـفين والياً على الأندلس من قبل والده، وكان قد داع صيته في مقارعة الخصـوم فنال شـهرة عالية، وبعد توليه ولاية العهد بعد وفاة أخيه «سـير» وفشـل محضـية أبيه «قمر» في تولية ابنها الصغير «اسحاق» بسبب إجماع رؤساء القوم على تولية تاشفين ابن علي ولاية العهد، أظهر أبو بكر ابن علي ابن تاشـفين أحد إخوة تاشفين عدم رضـاه عن تولي أخيه ولاية العهد، فما كان من أمير المؤمنين علي ابن تاشفين إلاَّ أن عزله.

وكانـت غرناطة مقر قيادة الأندلس أثناء ولاية تاشـفين لها من قبـل أبيه، وكان أحد مسـاعديه الأديب المعروف بـ«الصـيرفي». وظلت غرناطة مركزاً لقيـادة الأندلس إلى أن قرر أمير المؤمنين بمراكش علي ابن تاشفين انتقال القيادة والمركز إلى قرطبة، وأمر ابنه والـوالي من قبله على الأندلس بـأن يتجه إلى قرطبة ويتخذها مركزا لقيادته ومسـتقراً لسـكناه، فدخل تاشـفين قرطبة سنة ٥٢٦ هـ وعزل واليها «عبدالله ابن قنونة»، وذكر ابن يقطان في كتابه «نظم الجمان» أنه اغتيل رغم قرابته لأمير المؤمنين، ولم تذكر المصـادر سبباً لذلك. وقال صاحب كتاب «المغرب» عن تاشفين ابن علي: «كان بطلا شجاعاً حسن الركيبة والهيئة لولا بخل أَخَلَّ به، وقراءة كتب المريدين، وقيل أنَّه لم يشـرب قط مسـكراً، ولا اسـتمع إلى قينة، ولا اشـتغل بلذة صـيد، ولا غير ذلك مما يلهو به الملوك من سـائر اللهو». كما نوَّه «الصيرفي» بورعه وتقواه وصيامه وقيامه.

وقام تاشـفين ابن علي أثناء ولايته للأندلس بعدة غزوات في «الأرش» القشتالية، وقد وصل في أحد غزواته إلى قلعة «رياح البعيدة».

وفي عـام ٥٢٦ هـ حلت المجاعة بقرطبة وانتشـر الوباء وكثر الموت، وكثر أهل الشـر، وسـادت الفوضـى. وبحلـول نهاية نفس العام اسـتطاع القشـتاليون مهاجمة أشـبيلية والإطبـاق علـى المرابطين بعد معركـة قوية قتل فيها عمر ابن الحاج والي المدينة واشـتد الخوف والجزع بين الناس.

وسار تاشفين بن علي إلى مكان يقال له «البكار» راغبا مقارعة أعدائه القشتاليين، واستطاع القشتاليون استدراج الجيش المرابطي، فهجموا عليهم، وتمكنوا من اختراق جيش المرابطين، فدبَّ الخلل في الجيش، فَعَلاَ صياح المسلمين، ووصل جند قشتالة إلى خيمة أمير المسلمين تاشفين، فحاول بعض جنده إقناعه بالتقهقر خوفا على سلامته فأبى وأصر على مواصلة المواجهة، فكانت معركة حامية قتل فيها عدد كبير من المسلمين والقشتاليين انتهت بعودة القشتاليين إلى مواقعهم بعد قتل العديد من فرسان المرابطين.

وقد كتب له يحيى بن المصري بقصيدة قال فيها:

واحذر كمين الروم عند لقائها ... واقض كمينك خلفها إذ تدفعُ
لا تبقين النهر خلفك عندما ... تلقى العدو فأمره متوقعُ
واجعل مناجزة العدو عشية ... ووراءك الصدف الذي هو أمنعُ
واصدمه أول وهلة لا ترتدع ... بعد التقدم فالنكول يضعضعُ
وإذا تكاثفت الرجال بمعركٍ ... ضنكٍ فأطراف الرماح تُوسِّعُ
ومضت تؤذن بالصميل جيادها ... والهام تسجد والصوارم تركعُ
والرمح يثني معطفيه كأنه ... في الراح لا علق الفوارس يكرعُ
من معشرٍ إعراض وجهك عنهم ... فعل الجميل وسخطك المتوقعُ
يكبو الجواد وكل حبر عالم ... يهفو وتنبو المرهفات القُطَّعُ
أنَّى قرعتم يا بني صنهاجة ... وإليكم في الروع كان المفزعُ
ما أنتم إلا أسودٌ حفْيةٌ ... كلٌّ بكل عظيمة تستطلعُ
أو ما ليوسف جده منَّ على ... كل وفضل سابق لا يرفعُ
أو ما لوالده علي نعمة ... وبكل جيدٍ ربقةٌ لا تخلعُ
ولكم بمجلس تاشفين كرامةٌ ... وشفيعكم فيما يشاء مشفعُ
ألا رعيتم ذاك في أحسابكم ... وأنفتم من قالة تستشنعُ
ومن العجايب أنه مع سنه ... أدرى وأشهر في الخطوب وأضلعُ
ولقد عفا والعفو منه سجيةٌ ... ولسطوةٍ لو شاء فيكم موضعُ

وقد قامت بعض الحوادث الاجتماعية الداخلية والاضطرابات مثل تلك المنازعات بين المسلمين واليهود بسبب وفاة أحد المسلمين في حي من أحياء اليهود، كما أنَّ العامَّة قد ثارت على قاضي قرطبة «أبو بكر بن العربي» الذي كان أوقع بهم أشدّ العقوبات لأسباب قد لا تستحق ذلك.

وكما نعلم فإنَّ المجتمع الأندلسي تعوَّد على الاستمتاع بمباهج الحياة، فكان من الصعب على مجتمع كهذا أن يقبل قاضياً متشدداً في الأمور السلوكية قبل تهيئة المجتمع وإقناعه بأنَّ السلوك القويم والعمل الجاد هو السبيل الأصلح لحماية الأندلس من الضياع.

وقد وقعت حادثة أخرى أليمة، وهي مقتل قاضي قرطبة «أحمد بن خلف»، وهو راكع وقت صلاة الجمعة، فسال دمه في المسجد أمام المصلين، وهذه دلالة أخرى على أنَّ الوضع الاجتماعي في قرطبة لم يكن مساعدا لاستمرار حكم المرابطين.

ولقد قام «ألفونسو ريمونتس» ملك قشتالة بغزو ديار المسلمين، ومعه سيف الدولة «المستنصر بن هود» المسلم، فقد سار هو على رأس أحد الجيشين بينما قاد الجيش الآخر سيف الدولة «ابن هود»، واجتمع الجيشان على مقربة من قرطبة، وكان الفصل فصل حصاد، فأمر ملك قشتالة بنسف حقول القمح وقطع أشجار الكروم والزيتون وغيرها، فساد الرعب بين المسلمين، وهجروا السهول والقرى وتوجهوا للجبال، ووصل الجيش في زحفه إلى أحواز أشبيلية، وهو يحرق المزارع والقرى والقلاع المهجورة، ويدمر المساجد ويحرق المصاحف، ويقبض على الفقهاء ويقيدهم، وامتلأت صفوف القشتاليين من الأقوات والغنائم والأسرى المسلمين، وقد راسل بعض حكام الحصون سيف الدولة «المستنصر بن هود» طالبين منه تخليصهم من المرابطين ممالأة للمستنصر، فطلب منهم الثورة على ولاة المرابطين وخيانتهم ومن ثم مجيئه إليهم، غير أنَّ ملك قشتالة قررَّ العودة فرجع معه سيف الدولة «المستنصر بن هود»، فظلت الحصون في يد المرابطين وخاب ظن أولئك الممالئين لابن هود.

وهكذا تتضح أحوال أهل الأندلس في تلك الفترة، حيث تململ من قبل المجتمع وضيق بالحكام الذين لم يستطعيوا التعامل مع واقع الأندلس المختلف، إضافة إلى الرغبة

الجامحة من الأندلسيين في ذلك الزمان إلى المباهج واللهو، والانصراف عن مقارعة الخصوم، في الوقت الذي يزداد فيه عدوهم قوة، وكسباً للمزيد من الأرض، وكان أمر المرابطين في تلك الحقبة من الزمان إلى زوال، ودعوة الموحدين في رقي واعتدال.

وبعد وفاة أمير المسلمين علي بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ، خرج تاشفين إلى تلمسان طمعاً في التفاف الناس حوله، بعد امتلاك الموحدين للأمر، ولم يدم حكم تاشفين سوى ثلاثة أعوام، وكان طول هذه الولاية لا يستقر له قرار ولا يستقيم له حال، تنبو به البلاد، وتتنكر له العباد.

ويروى أنَّه قصد وهران رغبة في القرب من البحر حتى يتمكن من العبور إلى الأندلس إذا ما خسر معركته مع الموحدين، وكان في ضاحية من وهران ربوة بالقرب من البحر بأعلاها رباط يتجه إليه أهل وهران للتعبد، فلمّا كانت ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك –وهي ليلة يجتهد فيها المسلمون لا سيما أهل المغرب في العبادة– رغب تاشفين مشاركة الناس تلك الليلة التضرع والعبادة، وعلم الموحدون من خلال عيونهم بانفراد تاشفين بذلك الرباط، فقصدوه وأحاطوا به وأحرقوا بابه، فوثب على ظهر فرسه آملاً أن يستطيع الوثوب وثبة فارس وهو على فرسه فيجتاز النار، لكنَّ الفرس راعته النار فانحرف إلى جرف إلى جهة البحر، فسقط على حجارة وعرة، فتهشَّم الفرس ومات الفارس أمير المسلمين «تاشفين ابن علي»، وأجمع المرابطون بعد وفاته على أخيه إسحاق بن علي –بن محظية أمير المؤمنين علي بن تاشفين «قمر» والغالبة على أمره حتى نهاية عهده–، وكان صبياً، فدخل الموحدون عاصمة المرابطين مراكش سنة ٥٤٢ هـ بعد حصار استمر إحدى عشر شهراً، وقتلوه صبراً.

وبهذا يطوي الزمن صفحة من صفحات تاريخ المغرب والأندلس، كانت مليئة بالأحداث والمآسي، فمن خلالها زال حكم الطوائف، وفرض فكر جديد، وسلوك مختلف عما ألفه أهل الأندلس.

وأمَّا أحوال الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة

وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلوا في أعينهم واجترأ عليهم العدو واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت بسوس واشتغال علي بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة.

ولما رأى أعيان الأندلس ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين أخرجوا من كان عندهم من الولاة، واستبد كل منهم بضبط بلده، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية، فأما بلاد «أفراغة» فاستولى عليها ملك «أرغن» وملك مع ذلك «سرقسطة» وكثيراً من أعمال تلك الجهات.

واتفق أمر أهل «بلنسية» و«مرسية» وجميع شرق الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه «عبدالرحمن بن عياض»، الذي قال عنه المراكشي: وكان عبدالرحمن هذا من صلحاء الأمة وخيارهم، وكان مجاب الدعوة. ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد، ولا يستطيع لقاءه بطل، كان النصارى يعدونه وحده بمئة فارس إذا رأوا رايته قالوا: هذا ابن عياض! هذه مئة فارس! فحمى الله تلك الجهات ودفع عنها العدو ببركة هذا الرجل الصالح، وانتشر له من الهيبة في صدور النصارى ما ردَّهم عن البلاد. وأقام ابن عياض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي.

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه «محمد بن سعد» المعروف عندهم «بابن مردنيش»، وكان خادماً لابن عياض يحمل له السلاح، ويتصرف بين يديه في حوائجه، فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له: إلى من تسند أمورنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد فأشاروا به عليه فقال: إنه لا يصلح لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة، فإن كان ولا بد فقدموا عليكم هذا -وأشار إلى محمد بن سعد- فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء، ولعل الله أن ينفع به المسلمين!

وأما أهل «ألمرية» فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم، فندبوا إليها القائد أبا «عبدالله بن ميمون» ولم يكن منهم إنما هو

من أهل مدينة «دانية» فأبى عليهم وقال: إنما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر وبه عرفت، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيري. فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه «عبدالله بن محمد» يعرف «بابن الرميمي» فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر؛ فقتلوا أهلها، وسبوا نساءهم وبنيهم، وانتهبوا أموالهم.

ومَلَكَ «جيان» وأعمالها إلى حصن «شقورة» وما والى تلك الثغور رجل اسمه «عبدالله» معروف عندهم بابن «همشك» وربما ملك عبدالله هذا قرطبة أياماً يسيرة.

وأقامت على طاعة المرابطين غرناطة وأشبيلية.

وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورؤوس ضلالات فاستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة، من جملتهم رجل اسمه «أحمد بن قسي» كان في أول أمره يدعي الولاية وكان صاحب حيل ورب شعوذة، وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة، ثم ادعى الهداية، ثم لم يستقم له شيء مما أراد واختلف عليه أصحابه وكان قيامه بحصن «مارتلة» فأسلمه أصحابه واختلفوا عليه ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد فعبروا به إلى العدوة، فأتوا به عبدالمؤمن فقال له: بلغني أنك ادعيت الهداية، فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجرين كاذب وصادق، فأنا كنت الفجر الكاذب. فضحك عبدالمؤمن وعفا عنه ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس.

وبهذا يطوي الزمن صفحة من صفحات تاريخ المغرب والأندلس، كانت مليئة بالأحداث والمآسي، فمن خلالها زال حكم الطوائف، وفرض فكر جديد، وسلوك مختلف عما ألفه أهل الأندلس.

obeikandl.com

قصر بمدينة أشبيلية: المدينة التي دخلها المرابطون وقضو فيها على المعتمد بن عباد أشهر ملوك الطوائف